الفصل الثانى

ليبيا (طرابلس الغرب) خلال الحكم العثمانى

بعد أن وقعت طرابلس الغرب[1] فى يد الإمبراطور الإسبانى "شارل الخامس" فى عام ١٥١٠ ترك إدارتها لفرسان القديس يوحنا ، الذين كانوا يتخذون من مالطة مقرا لهم .

وقد أحل فرسان القديس يوحنا بهذه المدينة الدمار ، واتبعوا مع أهلها سياسة التعصب الدينى حيث أقاموا حكومة مسيحية دينية استهدفت تغيير الوجه الإسلامى لهذا الإقليم العربى الإسلامى ، كما أنهم جعلوا من ميناء طرابلس جيبا صليبيا ينطلقون منه لضرب السفن الإسلامية التى تجوب البحر المتوسط ، وقاعدة يشنون منها غاراتهم ضد الأقطار الإسلامية المطلة على البحر المتوسط ، ولكنهم اصطدموا بالشعور الدينى الإسلامى المتأجج فى نفوس الأهالى . فقد عمد أهالى طرابلس إلى مقاومة هذه الهجمة الشرسة ضد الإسلام مستعينين فى ذلك بالمجاهدين المسلمين الذين كانت سفنهم تجوب البحر المتوسط أمثال عروج وخير الدين ، ولكن إمكاناتهم الحربية وجهودهم البشرية حالت دون ذلك خاصة بعد أن قام فرسان القديس يوحنا بتحصين المدينة ، وتدعيم قلعتها ، هذا بالإضافة إلى تحالف "الحسن الحفصى" حاكم تونس معهم ومساندتهم ، مما دفعهم إلى الاستنجاد

---

(١) سميت طرابلس الغرب للتفرقة بينها وبين مدينة طرابلس الشام ، وقد اقتصر استيلاء الإسبان وفرسان القديس يوحنا على طرابلس وما جاورها ولم يتوغلوا فى باقى أنحاء ليبيا، وترجع أهمية مدينة طرابلس لموقعها على طريق الحج من الغرب إلى مكة المكرمة، ثم من إتصالها بالطرق التجارية بين أفريقيا وأوربا .

بالسلطنة العثمانية كما فعلت الجزائر من قبل . فأرسلوا وفدا إلى السلطان العثمانى " سليمان القانونى" يلتمسون منه المساعدة لتخليص بلادهم من الحكم الصليبى ، ويعلنون ولاءهم له ، والانضواء تحت السيادة العثمانية . وقد وافق السلطان على طلبهم حيث رأى أن الاستيلاء على طرابلس الغرب يمثل إكمال حلقة النفوذ العثمانى على أقطار المغرب العربى ، كما أن فيه إنقاذ لأهل هذه البلاد المسلمين من السيطرة الصليبية ، ومن حركة التنصير التى كان يرغب الإسبان صبغها بهم .

ونتيجة لذلك أرسل السلطان حملة إلى طرابلس الغرب بقيادة "سنان باشا" قائد الأسطول التركى فى ١٣ شعبان ٩٥٨هـ ١٦ أغسطس ١٥٥١م لفتحها وطرد فرسان القديس يوحنا منها . وقد تكونت هذه الحملة من مائة وعشرين سفينة يساندها خمسون أخرى وستة آلاف جندى ، وأربعين مدفعا. وقد قام "سنان باشا" بمحاصرة المدينة وقصف قلعتها حتى اضطرت إلى الاستسلام ، وفتح أبوابها للأتراك ، وإجبار فرسان القديس يوحنا على مغادرتها واللجوء إلى مالطة .

ومنذ ذلك الوقت أصبحت طرابلس ولاية عثمانية ، وقاعدة للأسطول العثمانى فى البحر المتوسط ، ومرسى للعثمانيين يربط البحر المتوسط بطرق القوافل المتجهة إلى الصحراء ، وإلى أفريقيا السوداء جنوبا بالإضافة إلى جعلها ملجأ للسفن القادمة من الغرب ، والمحملة بالحجاج وهم فى طريقهم إلى الأماكن المقدسة.

ويقسم المؤرخون الحكم العثمانى فى ليبيا إلى ثلاثة أقسام هى :

١-العصر العثمانى الأول والذى استمر فيه الحكم العثمانى المباشر لهذه البلاد. وهذه الفترة تنحصر ما بين عامى ١٥٥١/١٧١١م .

٢-حكم الأسرة القره مانلية ١٧١١-١٨٣٥م .

٣-العصر العثمانى الثانى ١٨٣٥-١٩١١م ٠

وفيما يلى نعرض لذلك :

أولا : العصر العثمانى الأول :

بعد فتح العثمانيين لطرابلس ، قام "سنان باشا" بتنظيم شئونها ، فوضع على قلعتها حامية كبيرة من الإنكشارية وقام بإصلاح شئون إدارتها ، ثم اتجه بعد ذلك إلى استنبول حيث صدر فرمان سلطانى بتعيين "مراد أغا" فكان بذلك أول الولاة العثمانيين هناك ٠

وقد واجه "مراد أغا" فى مستهل عهده مشاكل عديدة كان أبرزها العمل على إعادة تعمير المدينة ، وترميم القلعة ، وتنشيط الحياة العامة فى البلاد ، بعد ما تعرضت له من أضرار فادحة خلال العهد الإسبانى وعهد فرسان القديس يوحنا ٠

وقد عمل "مراد أغا" على إعادة الاستقرار إلى طرابلس ، فدعا سكانها الذين هجروها خلال حكم فرسان القديس يوحنا للعودة إليها ، وشجعهم على العمل فى استثمار الأرض الزراعية ، وإنشاء البساتين كما شجعهم على العمل فى الصناعة مما أدى إلى عودة الحياة إلى مرافق المدينة ، كما نجح فى زيادة رقعتها بضم بعض المناطق الجنوبية القريبة منها ٠

وقد اهتم مراد أغا بالناحية الدفاعية للمدينة ، مما أفشل الخطط الصليبية لاستعادتها ٠

واستمر مراد أغا فى حكم طرابلس حتى عام ١٥٥٦م حيث أدركته الشيخوخة، وأخذ منه العجز كل مأخذ فانسحب إلى "تاجوراء" ، وأنشأ مسجده المشهور بها ٠ ويقال إنه استعان فى بنائه بالأسرى الذين كانوا لديه ، ثم أحسن إليهم وأطلق سراحهم بعد إتمام المسجد الذى أقامه على ٤٨ عمودا

وجعله على شكل حصن ، ويعد هذا المسجد من أهم المعالم الأثرية الإسلامية القائمة فى ليبيا ٠

وفى أعقاب وفاة "مراد أغا" صدر أمر سلطانى بتعيين "درغوث" باشا" واليا على طرابلس الغرب فى عام ٩٦٢هـ/١٥٥٦م وقد كان أكثر اهتماما بالنواحى المعمارية فى طرابلس التى جعل منها عاصمة فى الشمال الإفريقى، والقاعدة الكبرى لعملياته البحرية الموجهة إلى المنطقتين الوسطى والغربية من البحر المتوسط ٠ وقد عظمت قوة طرابلس بعد أن اتخذ منها "درغوث" قاعدة لعمله الموجه إلى مهاجمة الدول الصليبية ، ورد الأخطار عن ديار الإسلام ، واستخلاص المناطق الواقعة تحت السيطرة الصليبية ٠

وقد نجح "درغوث" فى القضاء على ما تبقى من فلول فرسان القديس يوحنا فى طرابلس ، ومد النفوذ العثمانى إلى معظم السواحل الليبية ٠ ونتيجة لذلك شهدت طرابلس إنتعاشا بعودة السيادة الإسلامية إليها فقد عاد إليها سكانها الذين كانوا قد هجروها ونزحوا منها إلى الضواحى أثناء الاحتلال الإسبانى وفرسان القديس يوحنا وعادت إليها الحياة نتيجة ازدهار الحركة العسكرية بها ، وانتقال بعض الجنود المشارقة إليها ضمن القوات العثمانية٠ وقد حرص العثمانيون على أن يجعلوا منها قاعدة بارزة لأسطولهم ، وانصبت فيها الغنائم والسبايا والأسرى ٠ وعادت من جديد إلى الاتصال بالمدن الإسلامية ٠ وقد انصرف إهتمام "درغوث" فى تقوية وسائل الدفاع عن المدينة فعمل على تدعيم أبراجها فأقام "برج الترتاب" على الجانب الشمالى الغربى من سور المدينة الأصلى ، كما أنشأ مسجده المعروف فى عام ١٥٥٤م والذى لا يزال قائما حتى الآن ، وبنى لنفسه قصرا كبيرا كما أنشأ دارا للبارود ما تزال آثارها قائمة حتى الآن ٠

وعلى الرغم من الظروف الحربية التى واجهت "درغوث" فإنه استطاع تطوير مدينة طرابلس وتجميلها مستعينا فى ذلك بالأسرى الذين كانوا فى حوزته ٠

ونتيجة للتحصينات التى أقامها "درغوث باشا" لم يعد فرسان القديس يوحنا يفكرون فى الهجوم على طرابلس ، أو التفكير فى غزوها بل اتجه فكرهم إلى تشجيع الأعمال التخريبية سواء بطرابلس أو جربة ٠

وبعد وفاة "درغوث باشا" تولى "يحى باشا" الحكم فى طرابلس الغرب ولكنه لم يعمر طويلا فتولى الحكم مكانه "محمد بك" الذى ثار الأهالى ضده ، ولم تتوقف ثورتهم إلا عندما تولى مكانه "علج على" الذى عمل على تحصين مدينة طرابلس وتقوية دفاعاتها ، فبنى برجا بهدف أن يكون مخزنا للبارود لذلك سمى بدار البارود وخلال ذلك نشط "علج على" فى جهاد الإسبان ، ورصد تحركاتهم ونقل أخبارهم للسلطان العثمانى ٠

وخلال تلك الفترة ، ورغبة من الدولة العثمانية فى الحفاظ على وجه هذا الأقليم عربيا وإسلاميا استمر الباب العالى فى إرسال فيالق الإنكشارية لتعزيز الحامية العثمانية لمنع أى هجوم قد يقع عليه من جانب الإسبان أو فرسان القديس يوحنا ٠ كما اهتمت الدولة العثمانية بتحصين سواحل طرابلس٠ ونظرا لاستمرار فيالق الإنكشارية فى هذا الإقليم فقد تزوجوا من النساء العربيات ، وامتلكوا الأراضى الزراعية وأشجار النخيل ، وكان حصيلة هذه الزيجات نشأة طبقة عرفت باسم "القولوغلية" (١) .

---

(١) طبقة اجتماعية جديدة نشأت نتيجة اختلاط الجند الإنكشارية بالأهالى ، وكانت فى بدايتها قليلة العدد ثم سرعان ما تكاثرت وزاد نفوذها بما حصلوا عليه من امتيازات مالية وعسكرية ٠

وقد تعاقب على أمر البلاد فى هذه المرحلة ولاة كانوا أقل شأنا من الولاة العظام الذين سبقوهم إلى الحكم ، كما واجه الحكام المتعاقبون سلسلة من الاضطرابات ، والثورات المستمرة التى كان يثيرها الأهالى الذين كانوا يرفضون دفع الضرائب المفروضة عليهم ، واستمرت الأمور على هذا المنوال حتى وصل "أحمد القره ما نلى" أحد رجال الإنكشارية إلى أريكة الحكم .

ثانيا : عهد أسرة القره مانلى : ١١٢٣-١٢٥١هـ / ١٧١١/١٨٣٥م

أسس هذه الأسرة أحمد القره مانلى ، وهو سليل أسرة تركية تنتمى إلى بلدة قره مانيا الواقعة جنوبى هضبة الأناضول بآسيا الصغرى ، وكان يمتلك شخصية قوية طموحة واسعة الحيلة ساعدته على أن يتغلب على كثير من المصاعب التى تعرض لها . فقد وقف موقف المتفرج من الخلافات التى كانت قائمة بين الباشا والديوان وجند الإنكشارية والقولوغلية ، وأظهر عدم انحيازه لأى فريق ، حتى فاز برضاء الجميع وتمكن من نيل رضا العديد من الجند الإنكشارية وأعضاء الديوان بل ومعظم أعيان طرابلس حتى أجمعوا على تولية حكم طرابلس ١١٢٣هـ/١٧١١م بدلا من الوالى المعزول من قبل السلطان ، والذى كان غائبا عن البلاد وقتذاك . ومع ذلك فقد ظلت الصعوبات تواجه "أحمد القره مانلى" فى الخارج والداخل ، فمن الخارج أرسلت الدولة العثمانية حملة لتأديبه ، ولكنها فشلت فى مهمتها مما جعل السلطان "أحمد الثالث" يصدر فرمانا ثبته فيه فى حكم طرابلس ومنحه لقب الباشوية ، كما جعل حكمه وراثيا فى أسرته .

أما فى الداخل فقد تمكن من القضاء على فتن الضباط الإنكشارية الطامعين فى الحكم والراغبين فى بقاء مقاليد الأمور بأيديهم وذلك بعد أن تخلص منهم بمكيدة دبرها لهم فدعاهم إلى حفل فى منزله الريفى ثم أمر رجاله بذبحهم .

وقد اعتمد أحمد باشا على العنصر الوطني في الجيش والإدارة فأوكل الأعمال الإدارية لأبناء البلاد ، وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية فيها ، كما كان يتولى بنفسه قيادة الجيش للقضاء على الاضطرابات والفتن الداخلية . وقد استطاع أن يستعيد السيطرة على إقليم فزان الذى كان بعيدا عن سيطرة السلطة الحكومية ، وبذلك تمكن من فتح طرق التجارة عبر الصحراء من أفريقيا ، وسارت القوافل بين طرابلس والمدن الإفريقية فى جنوب وغرب القارة بطريقة منتظمة .

وقد اهتم "أحمد القره مانلى" بالأسطول وأعلن الجهاد ضد السفن الأجنبية التى لا تدفع له الأتاوة ، كما قام بتدعيم سلطته وترسيخها لمواجهة كافة الاحتمالات والتهديدات التى تضمن عدم مهاجمة الشواطئ الليبية بواسطة السفن الأوربية من الخارج ، وإخماد كل محاولة لإثارة الفتن والتمرد ضد حكمه فى الداخل .. لذلك قام بإنشاء وتجديد الوسائل الدفاعية لولايته ، فبدأ بتجديد أسوار طرابلس وتقويتها ، وشرع فى إنشاء الأبراج ، وعنى بتزويد الحصون بمدافع من عيارات كبيرة ، وأرسل الأموال والهدايا إلى عاصمة الخلافة لشراء الأنواع الجيدة من الأسلحة .

وقد اتسمت علاقات "أحمد القره مانلى" مع الدول الأوربية بالعداء بسبب مهاجمته للسفن الأوربية فى عرض البحر المتوسط ، وفرض أتاوات عليها ، وكانت معظم الدول الأوربية تخضع لشروطه ضمانا لسلامة سفنها ، وكانت إنجلترا وهولندا من أوائل الدول الأوربية التى سارعت إلى دفع الأتاوة حتى تأمن على سفنها العاملة فى البحر مما أدى إلى حصوله على الأموال الكثيرة والغنائم .

وفى عهده هاجم الفرنسيون طرابلس بثلاثة عشر قطعة بحرية ردا على الإهانات التى ألحقها البحارة الطرابلسيون بالبحارة الفرنسيين ورغبة فى

إطلاق سراح أسراهم . ولكن الباشا لم يرضخ لمطالبهم رغم القصف الشديد الذى تعرضت له طرابلس من مدافع الأسطول الفرنسى .

وبالنسبة للنواحى العمرانية فقد استطاعت شخصية أحمد القره مانلى" أن تحفر بصماتها على الحركة العمرانية تتجلى آثارها الباقية فى المسجد الجميل الذى يحمل اسمه ، والذى بدأ فى بنائه عام ١٧٣١ وانتهى منه فى عام ١٧٣٧ وألحق به مقبرة ومدرسة ، وفى البيوت والمخازن التى بناها فى القلعة هذا إلى جانب إمداده لمدينة طرابلس بالماء لنفع أهلها ، وقيامه ببناء "سقية" لسقى أهل السفن على البحر .

والحق أن أحمد باشا كان من الولاة القلائل الذين خلفوا طابعهم المعمارى على مدينة طرابلس .

ونظرا لبروز دور الأسرة القره مانلية عقدت العديد من الدول الأوربية، والولايات المتحدة معاهدات معها حتى يمتنعوا عن التعرض لسفنهم فى نظير دفع الأتاوات الباهظة والهدايا الثمينة لهم مما أكد استقلاليتهم الواضحة عن العثمانيين وأثبت أن العلاقة معهم لا تزيد عن علاقة إسمية تتسم بالولاء للسلطان العثمانى ، وترتبط بالصلات الروحية مع الدولة العثمانية ، واستمر أحمد باشا فى حكم ولاية طرابلس مدة ٣٤ عاما استطاع خلالها تثبيت حكم الأسرة القره مانلية فى ليبيا ، وتأكيد وحدة هذه البلاد وقد خلف "أحمد القرمانلى فى الحكم ابنه "محمد باشا" (١١٥٨هـ/١٧٤٥م) فقد أجمع الناس عليه لما يتمتع به من سمعة طيبة ، يضاف إلى ذلك أنه ورث حكم البلاد الليبية بعد أن استقر أمرها ، وزادت إيراداتها ، وأصبحت مهابة الجانب من الدول الأوربية البحرية فقد تسارعت هذه الدول إلى عقد المعاهدات معه ودفع الأتاوات له . وكانت هذه المعاهدات تتم دون أخذ رأى الآستانة .

ومع ذلك فلم تخل فترة محمد باشا من فتن وثورات ، كان من نتيجتها إضطراب أمور البلاد وتعرض حياة الناس وأرزاقهم للخطر ، وانتشرت أعمال اللصوصية والسلب والنهب لدرجة أن ضج الناس ، واستضرخوا الباب العالى ، وزاد الطين بلة إنقسام الأسرة القره مانلية على نفسها مثل فتنة "أحمد بن حسن كخيا" صهر الباشا وإخوته ، ومؤامرة الألبان والأرناؤوط لخلع الباشا • وعلى الرغم من نجاح الباشا فى إخماد هذه الثورات فقد اعتلت صحته وانتهى الأمر بوفاته فى ٢٤ يوليو ١٧٥٤م وله من العمر ٤٥ سنة •

أما الحاكم الثالث من أفراد الأسرة القره مانلية فكان "على باشا" الذى تولى أريكة الحكم وعمره ثلاث وعشرون سنه ، وكان لحداثه سنة أكبر الأثر فى مشاركة قادة الإنكشارية له فى الحكم ، على أن أهم الأحداث التى عصفت بحكمه تمثلت فى المجاعة وانتشار الطاعون بين الأهالى وعجز الحكومة عن دفع مرتبات الجند والأساليب التعسفية التى لجأ إليها رجال الباشا خلال جمع الأموال من القبائل ، هذا بالإضافة إلى الأحداث التى ارتبطت بالشقاق العائلى بين أفراد الأسرة القره مانلية والخلاف بين "حسن القره مانلى" وأخيه "يوسف" الذى انتهى بمقتل الأول واستعانة بعض أفراد الأسرة بباشوات الجزائر وتونس ثم طرد الأسرة القره مانلية من الحكم وما صحب ذلك من صراع من أجل عودتها إليه • كل ذلك كان له أثره على الحياة العامة فى البلاد وانتهى الأمر بصدور فرمان سلطانى بتولى "يوسف بك" أمور الولاية (١٧٩٥) بدلا من أخيه "أحمد الثانى" الذى كان أحق منه بالولاية • ولتوضيح الوضع العام الذى كانت عليه ليبيا خلال هذه الفترة ، والأثر الذى خلفته الأحداث السابقة على أوضاعها الاقتصادية والبشرية والعمرانية فإن المؤرخين يتفقون على أن مدينة طرابلس قد كانت فى أسوأ حال غداة استيلاء "يوسف باشا القره مانلى" على السلطة وكان عليه أن يواجه كثيرا من المتاعب فى سبيل تأكيد حكمه وتوفير المال اللازم لمواجهة التزاماته العامه ومهما كان الرأى حول الطرق التى سلكها هذا الرجل فى

الوصول إلى الحكم إلا أن هناك اتفاقا على أن البلاد قد نعمت بشئ من الاستقرار والانفتاح على التطور الحضارى فى عهده ، مما كان له أثره على الأوضاع الاقتصادية والعمرانية بالبلاد .

وقد أهتم "يوسف باشا" بتشجيع حركة الملاحة ، وإعادة تنظيم البحرية التى كانت تشكل المورد الرئيسى للبلاد ، كما أهتم بمتابعة الأحداث فى البحر المتوسط والصراع القائم بين إنجلترا وفرنسا ، وقام بتشجيع حركة القرصنة التى كانت تدر على خزانته المال الذى يمكنه من تثبيت حكمه ، وخلال ذلك كانت علاقة يوسف باشا بفرنسا ودية ، مما يفسر لنا مساندته للحملة الفرنسية على مصر وترتيب أمر نقل الأسلحة والذخائر إليها من فرنسا بطريق ليبيا بعد تدمير الأسطول الفرنسى فى موقعة "أبى قير البحرية" مما أدى إلى استياء انجلترا والدولة العثمانية أيضا من موقف يوسف باشا ، ففى الوقت الذى كان يريد فيه السلطان العثمانى إخراج الفرنسيين من مصر نجد يوسف باشا يساعد الفرنسيين على البقاء فى مصر ؛ ونتيجة لاستياء الدولة العثمانية من ذلك الموقف عدل الباشا عن موقفه ، وحاول استرضاء السلطان مع الحرص على بقاء علاقاته الطيبة مع فرنسا . أما عن علاقة "يوسف باشا" بالولايات المتحدة فلم تكن طيبة نتيجة لتعرض السفن الأمريكية العاملة فى البحر المتوسط لاعتراض السفن الليبية ، وإجبارها على دفع الأتاوات . ونتيجة لذلك حاولت الولايات المتحدة معاقبة الباشا عن طريق حصار ميناء طرابلس وضربه بالقنابل ، ولكن ما حدث هو أن جنحت سفينة أمريكية تدعى "فيلادلفيا" على الشاطئ الليبى فى ٣١ أكتوبر ١٨٠٣ فأسرها جنود "يوسف باشا" بما عليها من بحارة ورفضوا إطلاق سراحهم إلا إذا تعهدت الولايات المتحدة بدفع الأتاوات التى تفرض على سفنها .

ونتيجة لقرارات مؤتمرى فينا (١٨١٥) وإكس لاشابل (١٨١٩) بتجريم عملية القرصنة البحرية وتحريمها توقفت الدول الأوربية عن دفع الأتاوات

مما أدى إلى نضوب خزانة "يوسف باشا" مما دفعه إلى الاقتراض من الأجانب ، وفرض الضرائب على الأهالى واتباع أسلوب الشدة والبطش ضد معارضيه • وانتهى الأمر بتخليه عن الحكم لابنه على فى ربيع الآخر ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م •

وقد بذل "على القره مانلى" جهوده لإعادة الأمن والنظام إلى البلاد وقام بإلغاء الضرائب التى فرضها والده •

ومع ذلك فقد استمرت الثورات ، نتيجة لسوء الأحوال الاقتصادية وانتشار الفتن ، وعدم انتظام الأمور مما أدى فى النهاية إلى القضاء على حكم الأسرة القره مانلية فى ليبيا تماما فى المحرم من عام ١٢٥١هـ الموافق ٢٦ مايو ١٨٣٥، وقيام الدولة العثمانية بوضع حد لهذه الأحوال المضطربة ، فهيأت لذلك حملة كبيرة مكونة من ٣٢ سفينة بقيادة "مصطفى نجيب باشا" وصلت إلى طرابلس حيث قابلها الأهالى بكل مظاهر الحماس • وقد تمكنت هذه الحملة من الاستيلاء على كل القلاع والحصون والمواقع الاستراتيجية فى طرابلس وفرض الحكم العثمانى المباشر على الإقليم حيث قرأ "نجيب باشا" أمام أعضاء الديوان الفرمان السلطانى بعزل "على باشا" وبأنه يجب أن يذهب هو وأسرته ومن يريد أن يصحبه معه إلى الآستانة ثم استقبل قناصل الدول المعتمدين بالولاية ، وأبلغهم بذلك وبذلك أعلن الباب العالى نهاية الأسرة القره مانلية •

وهكذا حكمت الأسرة القره مانلية ولاية طرابلس حكما وراثيا لم تستطع خلاله تنمية أمور هذه البلاد أو المحافظة على شئونها مما أدى إلى انتشار الفوضى والثورات والحروب الأهلية والمجاعات حتى ضاق الأهالى ذرعا بحكم هذه الأسرة وتمنوا زوالها •

ثالثا : عهد الولاة العثمانيين بعد انتهاء حكم أسرة القـــره مـــانلى (العـــهد العثمانى الثانى) :

تولى شئون ليبيا فى الفترة بين ١٨٣٥-١٩١١ وهى الفترة التى يطلق عليها العصر العثمانى الثاني ثلاثة وثلاثون واليا انصرف الولاة المتعـــاقبون خلال السنوات الأولى من هذه الفترة إلى إعادة السيطرة العثمانية المباشـــرة على البلاد ، وتدعيم سلطة الحكومة فى مدينة طرابلس والمناطق الداخليـــة ، هذا بالإضافة إلى تعقب شيعة الأسرة القره مانلية المعزولة .

وقد واجهت الحكومة العثمانية خلال هذه الفترة صعوبات جمة تمثلـــت فى الموقف المعادى من زعماء الداخل مما تطلب منها حشد قواتها للقضـــاء على عصيانهم خاصة بعد خروج بعض المناطق على سلطة حاكم طرابلـــس فقد "اهتم نجيب باشا" أول وال عثمانى بعد انتهاء الأسرة القره مانلية بتصفية الموالين لحكم هذه الأسرة أو إعلان طاعتهم للحكم الجديد ، ومع أن "غومـــة المحمودى" أحد زعماء الدواخل قد بادر بإعلان طاعته للحكومة الجديـــدة ، ومساندة الموقف الموالى للحكم الجديد فإن الوالى التركى لـــم يطمئـــن إليـــه وأودعه السجن ، كما قام بحركات قمع واسعة النطاق فى المناطق المجـــاورة لمدينة طرابلس خاصة ضد أهالى الساحل الذين رفضوا تسديد ما عليهم مـــن ضرائب ، وأظهروا رغبتهم فى التمسك بالحكم الذاتـــى ، وأرغمـــهم علـــى الاستسلام بعد أن أوقع فيهم القتل والتنكيل مما كان له أثره فى استسلام بقيـــة المناطق المجاورة لطرابلس .

وقد سيطر على طرابلس خلال تلك الفترة جو عسكرى صارم تمثل فى سياسة القوة التى سلكتها الحكومة العثمانية .

وخلال تلك الفترة ازدادت الأوضاع ســـوءا بعـــد أن انتشـــر مـــرض الطاعون فى ليبيا ، وارتفع عدد ضحاياه ، مما أدى إلى هجرة معظم الـ ـكان للبلاد .

ومع كل ذلك فقد عمل بعض حكام هذه الفترة أمثال "رائف باشا" على ترقية شئون البلاد . أما الباقون فقد كان معدل ولاية الواحد منهم أقل من سنه فلا يكاد أحدهم يستقر في ولايته حتى يصدر فرمان بعزله وتولية غيره، لذلك كان الوالى يسعى بمجرد وصوله إلى البلاد فى جمع أكبر مبالغ ممكنه من الأموال لأنه يعلم أن بقاءه فى منصبه لن يطول . لذلك لم يهتم الولاة بأى عمل جدى فى الولاية ، كما صرفوا وقتهم فى إخماد الثورات التى اتسع نطاقها ، فقد تزعم "عثمان أغا" الثورة فى "مصراته" وأكد "عبد الجليل سيف النصر" سيطرته على فزان ، وقاد "غومة المحمودى" الثورة ضد الحكومة فى "يفرن" بالجبل الغربى هذا إلى جانب ثورات الجند بشأن عجز الإدارة عن دفع مرتباتهم .

وقد نجحت هذه الثورات فى إجهاض محاولات الحكومة إعادة الاستقرار إلى البلاد ، وزاد الطين بلة تعرض البلاد للمجاعات بسبب قلة الأمطار وانتشار الجفاف، وتوقف الحصول على الأتاوات من السفن الأوربية .

ومع كل هذه المشاكل والصعوبات فإن بريق الأمل فى الإصلاح لم ينقطع ، فقد قام بعض الولاة بعدد من الأعمال العمرانية والتنظيمات الإدارية والإنشاءات العسكرية توضع فى سجل تاريخهم . فلما تولى "على عسكر باشا" (١٨٣٨-١٨٤٢) شئون ليبيا أتم ترميم المساجد ، وبناء دار جديدة للحكومة ، وعندما تولى "محمد أمين باشا" الحكم (١٨٤٢-١٨٤٧) اتبع سياسة التسامح مع خصومه فأطلق سراح المعتقلين وألزم الناس بالطاعة والإذعان ، وقد هيأت مدة حكمه الطويل الفرصة لإجراء بعض التنظيمات الإدارية التى شملت القضاء والإدارة والشئون المالية فتم تنظيم الأقسام الإدارية فى الولاية وأنشئت المجالس المحلية ، ووضعت السجلات المتنوعة،

وأعيد تنظيم الضرائب من حيث فرضها وجمعها ، ولعل من أبرز أعماله العتوعة إنشاء المستشفى العسكرى بطرابلس ٠

وفى ولاية أحمد عزت باشا (١٨٤٨) التى تميزت بالهدوء فى بدايتها تم عمل إحصاء للسكان ، كما تم زيادة عدد أفراد الحامية وقد صرف هذا الوالى جهده إلى تحقيق التقارب مع تونس سعيا للوقوف فى وجه السياسة الفرنسية التى كانت ترمى إلى توطيد أطماعها فى الشمال الأفريقى ٠

وقد تميزت فترة عزت باشا بمعارضة التغلغل الأوربى والوقوف فى وجه الأطماع الأجنبية ٠

وفى ولاية "محمود نديم باشا" (١٨٦٠) والتى بلغت سبع سنوات شهدت البلاد فترة من الهدوء والأمن والاستقرار وحسن الإدارة ، فقد اهتم هذا الوالى بتطوير الأوضاع العامة فى البلاد ، وتطوير مزروعاتها ومصنوعاتها ٠ كما قام بعمل تنظيم إدارى جديد لليبيا فأنشأ المحاكم لضمان العدل والمساواة بين الأهالى ، ففى عهده تم إنشاء المحاكم المدنية والجنائية والتجارية ، وفى عهده انشئ أول مطبعة فى طرابلس ، وصدرت أول جريدة بمدينة طرابلس باسم (طرابلس الغرب) وكانت تصدر بالتركية والعربية ، وإلى جانب ذلك فقد نظمت إدارة البريد وتم توصيل طرابلس ببعض المناطق الليبية عن طريق التلغراف وتم بناء الأسواق ودور التخزين وفى عهده تم فتح بوابة جديدة لميناء طرابلس من الناحية الغربية لعمران تلك الجهة ، وتسهيلا لسبل الاتصال بين سكان المدينة والقرى المجاورة ٠ كما اهتم الوالى أيضا بمحاربة بعض التقاليد السيئة فأبطل ما كان يجرى فى ليلة عاشوراء من قيام بعض الرعاع من العامة بحمل شبه رأس جمل يدورون به فى أزقه وحوارى البلاد ٠

وما من شك فى أن طرابلس نعمت فى عهد هذا الوالى بالكثير من الهدوء والاطمئنان ، فانتعشت فيها الحالة التجارية والاقتصادية بفضل ما أبداه من رغبة فى تطويرها والنهوض بها .

وفى عهد "الفريق على رضا" (١٨٦٧) الذى جمع فى شخصه بين قيادة القوات العسكرية ومنصب الوالى تم تطوير ولاية طرابلس وتحسين أحوالها وتنفيذ بعض المشاريع الهامة مثل تسوية الطرق والمعابر فى داخل المدن وخارجها وتنظيم شئون البريد ، ومد أسلاك التلغراف برا من طرابلس إلى الخمس ثم إلى الحدود التونسية ، وتشجيع حفر الآبار الارتوازية ، وربط الأودية ومدها بالترع والسواقى ، وتأسيس سوق العزيزية والحديقة العمومية وإنشاء الساعة التى ما تزال قائمة حتى الآن بميدان الساعة بطرابلس ، والتى تعد من المعالم الأثرية الباقية التى توضح قدرة هذا الوالى على تجميل هذه المدينة وتحسين أحوالها لدرجة أنه حظى بتعاطف وإعجاب الأهالى .

وفى ولاية أحمد راسم شهدت طرابلس اهتماما واضحا وحركة واسعة من النمو والتطوير ، فازداد النمو فى مبانيها ، وتم تبليط شوارعها ، كما قام بحفر بئر للمياه لتسهيل حصول الأهالى على الماء .

وإلى جانب ذلك أنشأ أحمد راسم مستشفى للغرباء فى عام ١٨٨٣ كما تم فى عهده إنشاء الرصيف الذى عرف باسم رصيف سوق الثلاثاء بهدف حماية هذه المنطقة وأسواقها ومتاجرها من هيجان البحر .

لقد كان الأثر العمرانى الذى خلفه أحمد راسم باشا على طرابلس واضحا ، ولا شك فى أن أعماله العمرانية واهتمامه بمدينة طرابلس وتطويرها وتجميلها تضعه ضمن الولاه الذين تركوا أثرا فى الحياة العامة بليبيا ، فقد نعمت البلاد فى عهده بنوع من الاستقرار وشهدت تطورا واضحا فى كافة مرافقها ، وازدهرت بها الحياة الاقتصادية والتجارية .

... باشا الذى استمر فى الاهتمام بالتجا...
... ووجد صعوبة فى فرض التجنيد الإجبارى ومن الإنشاءات الهامة التى تمت فى عهده تأسيس مدرسة الفنون والصنائع وتأمين موارد المياه .

وفى عهد الوالى حافظ باشا تم العمل على تنظيم الإدارة ، وعلى الرغم من ذلك فقد تعاقب على حكم ليبيا مجموعة من الولاة تفاوتت مدة حكمهم طولا وقصرا ومع ذلك لم يتركوا أى أثر فى الحياة العمرانية يذكر لهم .

ولعله من الطريف أن نذكر أنه بعد قيام الثورة فى تركيا وسقوط السلطان عبد الحميد استقبل أهالى طرابلس ذلك بترحاب كبير ورأوا أن الفرصة سانحة لحصول بلادهم على نوع من الاستقلال فقاموا بإجراء إنتخابات لاختيار ثمانية أعضاء يمثلون ولايتهم فى مجلس المبعوثان بالاستانة ، ولكن خاب أملهم بسبب سياسة الاتحاديين الذين اتبعوا الأسلوب المركزى فى الحكم وعينوا فى ليبيا موظفين غرباء لا يعرفون لغة أهل البلاد، وحاولوا فرض سياسة التتريك التى كانت إحدى السمات الأساسية لحكمهم .

وهكذا لم يرتبط الحكم العثمانى فى ليبيا بسياسة واضحة ومرسومة لحكم البلاد وتنميتها والأخذ بيدها ، بل كان هذا الحكم فى مجمله غير قادر على إدارة هذه البلاد بطريقة سليمة خاصة وأن كل هم العثمانيين كان جمع الضرائب فى وقت قلت فيه الأموال فى أيدى دافعيها . يضاف إلى ذلك أن الدولة العثمانية لم تقم بإصلاحات تذكر فى هذه الولاية لتحسين المواصلات أو التعليم أو للقضاء على الأوبئة والاهتمام بالصحة العامة ، وفضلا عن ذلك فإن النظام الإدارى فى هذه البلاد صار موزعا بين رؤساء الأسر الكبيرة والشيوخ ، وكان من هؤلاء السنوسيين الذين اختصوا بالأمور المحلية فى العديد من المناطق التى قامت فيها الزوايا السنوسية خصوصا فى فترة العهد العثمانى الثانى . فكان رحالات الدعوة السنوسية بمثابة همزة الوصل بين

العثمانيين والأهالي . فقد قبل الأهالي الزعامة السنوسية لتمتعها [illegible] بسمعهم . واعترفت الحكومة العثمانية بالأمر الواقع وتقربت منه [illegible] أول اعتراف رسمي بالسنوسية في فرمان أصدره السلطان عبد المجيد الأول (١٨٥٦) سمح فيه للسنوسيين بجمع ضريبة دينية من أتباعهم ، وأعفى زواياهم من الضرائب ، كما ثبت السلطان عبد العزيز (١٨٦١) هذه الامتيازات وسمح بأن تكون السنوسية "حمى" يمكن للناس أن تحتمي فيه . وفي نفس الوقت كان حرص السلطان عبد الحميد (١٨٧٦) على بقاء علاقات الصداقة مع السنوسيين . وفي نظير ذلك تكفلت الحركة السنوسية بمهمة جمع الضرائب من الأهالي في المناطق النائية ، كما اعترفت بفكرة الخلافة العثمانية والدعاء للسلطان العثماني على منابر المساجد يوم الجمعة على اساس أن الإسلام لم يفرق منذ ظهوره بين الدين والدولة لذلك فإنه يحق لآل عثمان الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية ، وبذلك يصبح السلطان العثماني خليفة للمسلمين ويحق له تدبير شئون الدنيا للمسلمين إلى جانب شئون الدين .

ونتيجة لذلك عظم شأن السنوسيين ، وزاد أتباعهم بين كبار رجال الدولة العثمانية وكان من أثر ذلك ازدياد سطوة السنوسية في برقة وطرابلس لدرجة أصبحت معها السلطة الفعلية دينية وزمنية بيد شيوخ الزوايا السنوسية . واستمرت الأمور على ذلك حتى ساورت السلطان عبد الحميد الشكوك في نوايا السنوسيين نتيجة لوشايات بعض الأوربيين ضدهم لدرجة أصدرت معها الدولة العثمانية أوامرها إلى موظفيها بجمع ضرائب على ما تنتجه أراضي الزوايا ولكن السنوسيين رفضوا ذلك بقوة مما جعل الحكومة العثمانية تعدل عن ذلك .

وعلى أي حال فإنه نتيجة لضعف الدولة العثمانية واضطراب أحوالها تطلعت إيطاليا للسيطرة على ليبيا ومهدت لذلك بتغلغل نفوذها الاقتصادي والثقافي فحصلت على امتياز بفتح فرع لبنك روما في كل من طرابلس

وبرغم عام ١٩٠٥ ذلك البنك الذى لم يقتصر دوره على الأعمال البنكية ، بل تعداه فى عمليات الرهن والتسليف مع الأهالى ، وإقراض الأموال لأصحاب الأراضى الزراعية ثم سلبها منهم ، كما فتحت إيطاليا المدارس المجانية فى ليبيا بقصد نشر الثقافة الإيطالية ، وأنشأت المستشفيات والملاجئ للمرضى والفقراء ، وأنشأت مكتبا للبريد فى بنغازى وإلى جانب ذلك قامت بإرسال البعثات العلمية لاكتشاف المناطق الداخلية فى ليبيا ومسح أراضيها هذا فى الوقت الذى لم تقم فيه الدولة العثمانية بأى عمل جدى لوقف التوغل الإيطالى فى ليبيا .

ولكى تبرر إيطاليا أهدافها الاستعمارية فى ليبيا بدأت بالتنديد بسياسة الأتراك فى ليبيا ، وطالبتهم بضرورة إصلاح أحوال هذه البلاد ، والنهوض بها ، وبعد أن تهيأت الأذهان أمام سيطرة الإيطاليين على ليبيا طالبت إيطاليا الدولة العثمانية فى سبتمبر ١٩١١ بعدة مطالب لها فى ليبيا هى :

١- خروج العساكر العثمانية من طرابلس وبنغازى ودرنة .

٢- تشكيل قوات عسكرية فى هذه المناطق تحت قيادة ضباط إيطاليين .

٣- أن تكون إدارة الجمارك فى ليبيا تحت أيدى موظفين إيطاليين .

٤- أن يتم تعيين والى طرابلس بموافقة إيطاليا ورضاها .

ولم تكتف إيطاليا بذلك بل وجهت إنذارا إلى الدولة العثمانية تتهمها فيه بعدم النهوض بليبيا ، وتجاهل رغائبها فيها ، ومعارضة مشروعاتها هناك رغم مصالحها الحيوية فى هذه البلاد ، هذا إلى جانب قيامها بتحريض الأهالى على الرعايا الإيطاليين بخاصة ، وعلى الرعايا الأجانب على اختلاف جنسياتهم بعامة مما جعلهم يخشون على حياتهم ، ويشرعون فى الهجرة من هذه البلاد . ونتيجة لذلك فإن الحكومة الإيطالية مضطرة حرصا على مصالحها وشرفها إلى إحتلال طرابلس وبنغازى إحتلالا عسكريا وقد

صدرت الأوامر إلى السفير الإيطالى فى الآستانة بالحصول على رد من الحكومة العثمانية على هذا الإنذار فى مدة أربع وعشرين ساعة وإلا فإن الحكومة الإيطالية مضطرة إلى إحتلال ليبيا .

وعند تحليلنا لهذا الإنذار نجده يثير الدهشة والاستغراب ولانجد سببا واحدا معقولا من الأسباب التى وردت فيه يدعو إيطاليا إلى القيام بهذا العمل العدائى . فهل من المنطقى أن تهدد ايطاليا باحتلال المدن الليبية لأن الدولة العثمانية لم تعمل على النهوض بهذه البلاد . وهل من المنطق أن تهدد ايطاليا بالاستيلاء على ليبيا لأن الدولة العثمانية لم تمنحها إمتيازات إقتصادية ، تناقض حقوقها فى هذه البلاد .

وللإجابة على ذلك نجد أن إيطاليا استغلت ضعف الدولة العثمانية وانشغالها وسوء أحوالها فى تحديها والإفتراء عليها ، كما أنها أرادت أن تحول أنظار الشعب الإيطالى إلى الخارج حتى تبعده عن التفكير فى مشاكل بلاده الداخلية .

وكان رد الدولة العثمانية على هذا الإنذار ضعيفا حيث حاولت التنصل من إتهامات ايطاليا لها ، وأظهرت حسن نيتها تجاه الإيطاليين ومشروعاتهم الاقتصادية فى طرابلس وبرقة ، ودعت إلى إجراء مفاوضات بين البلدين بهدف تجنب الحرب، وحسم النزاع بينهما بالطرق السليمة مقابل أن تعطى إيطاليا مركزا ممتازا فى ليبيا، كما قامت الدولة العثمانية بإرسال برقيات إلى الدول الأوربية تطلب منها التوسط فى الأمر ، ولكن إيطاليا رفضت كل هذه المحاولات ، وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية فى ٢٩ سبتمبر ١٩١١ وبدأت فى محاصرة طرابلس مدة ثلاثة أيام حتى سقطت بعد قتال غير متكافئ حدث خلاله مجزره بشريه تمثلت فيها أفظع أدوار الهمجية وبعدها تم للإيطاليين احتلال الموانى والنقط الساحلية فى ليبيا فى أكتوبر ١٩١١ أما

باقى المناطق فقد ظلت فى أيدى القوات الوطنية التـــى وقفـت للإيطـاليين بالمرصاد ٠

وقد واجه المجاهدون الجيش الإيطالى فى معارك طاحنة استبسلوا فيها ولكن الفارق فى التسليح والإمكانات كان له أكثر الأثر فى حســم المعركــة لصالح إيطاليا ٠

وبعد أن عجزت الدولة العثمانية عن مد يد العون الفعلية إلى الأهـالى وفشلت قواتها فى مواجهة الموقف إضطرت إلى عقد معاهدة "أوشى لـوزان" مع إيطاليا والتى انسحبت بمقتضاها من ليبيا فى ١٨ أكتوبر ١٩١٢ وتركتها لقمة سائغة للإيطاليين ، كما تركت أهلها يقاومون الجيش الإيطالى بمفردهـم مقاومة عنيفة لأكثر من ثلاثين سنة ٠

وبهذه المعاهدة خرجت الدولة العثمانية مـن ليبيـا تاركـة الزعامـة السنوسية تقف بمفردها فى مقاومة الاستعمار الإيطالى مما كان له أكبر الأثر فى تطور الموقف فى غير صالح الليبيين ، هذا عن تاريخ ليبيا فى العصـر العثمانى وحتى سقوطها تحت براثن الاحتلال الإيطالى ويبقى لدينا فى هـذا الفصل التعرض لنظام الحكم العثمانى ولأحـوال هـذه البـلاد الاقتصاديـة والاجتماعية فى ظله ٠

١- نظام الحكم العثمانى فى ليبيا

كان لموقع هذه الولاية من الممتلكات العثمانية ، وبعدهـا عـن مقـر السلطة أكبر الأثر فى رغبة الحكومة العثمانية إلى قصر مدة الوالى مخافـة أن يستقل بالبلاد ، مما جعل الولاة لا يهتمون إلا بمصالحهم الخاصة لذلك لم تشهد طرابلس خلال الحكم العثمانى أى سياسة متكاملة يمكن أن يطلق عليـها حركة عمرانية ٠ حقيقة أنه خلال فترات الهدوء والأمن تعـاظمت بعـض الأعمال العمرانية ولكنها كانت فردية فقد اهتمت الدولـة العثمانيـة بـإقليم

طرابلس الغرب عسكريا ولم تهتم به مدنيا ، كما اقتصرت عناية بعض الولاة منه على بعض المدن الساحلية ولم تشمل المناطق الداخلية مما أضعف الإدارة العثمانية فى الداخل ، وأدى إلى أضعاف الثقة بين الحاكم والمحكوم وتعكير صفو الحياة الهادئة فى كثير من الأحيان ، وانحدار هيبة الوالى ، وكثرة الفتن والثورات خاصة فى مناطق القبائل . لقد أديرت ولاية طرابلس الغرب من قبل وال يساعده نائب يسمى "الكاهية" و"خازندار" يختص بشئون الخزينة ، إضافة إلى الكتبة ، والمستشارين ، وقاضى الجند ، والموظفين الإداريين ووكيل الجباية والخراج وإلى جانب هؤلاء كان القضاة الذين يرسلون من استنبول .

وقد قسمت ولاية طرابلس إلى قسمين الأول طرابلس ويضم المنطقة الغربية وفزان ، والثانى بنغازى ويضم المنطقة الشرقية . وقد مرت طرابلس بفترات قوة وفترات ضعف فعندما تكون سلطة الحكومة قوية تزدهر حالات الاستقرار وتتزايد الأعمال العمرانية ويتم بناء المساجد والمدارس وغيرها وعندما تصبح الحكومة ضعيفة تنتشر الثورات الداخلية ، ويصعب السيطرة على زمام الأمور وتسخر كل الجهود لإعادة النظام . ومع كل ذلك فقد نظر الأهالى للعثمانيين نظرة حماة الإسلام الذين دفعوا عنهم شر الهجمات الصليبية سواء من الإسبان أو فرسان القديس يوحنا .

وبالنسبة للضرائب وطريقة جبايتها فقد تم تنظيمها وفقا للأعراف السائدة ، والطرق المتفقة مع الشريعة الإسلامية ، فطبقت ضريبة العشر ، والخراج ، والمكوس الجمركية ، والضريبة الشخصية وضريبة الأملاك على العقارات والدواب .

وإلى جانب ذلك فقد شكلت غنائم الجهاد والحروب البحرية ركنا أساسيا فى إقتصاديات البلاد ، فكان المجاهدون المسلمون يغيرون على السفن الصليبية ، ويوزعون ما يغنمونه منها بعد إقتطاع الخمس للحكومة .

٢- مظاهر الحياة الاقتصادية فى ليبيا خلال الحكم العثمانى

أ- الزراعة

انقسمت الفلاحه فى ليبيا إلى قسمين قسم يشمل أصحاب البساتين الكبيرة والأراضى المجاورة لطرابلس وأصحاب الآبار والمياه ، وكان هؤلاء يتقنون الزراعة وخدمة الأرض ويزرعون الحبوب بكميات وافرة كلما توافر المطر، وكان إنتاجهم يزيد عن حاجات الأهالي ، ويصدر الفائض منه إلى موانى إسبانيا عن طريق البحر . وإلى جانب ذلك فقد كان هؤلاء يزرعون كميات وافرة من الثمار وأنواع الفاكهة والحمضيات وأنواع عديدة من الزيتون .

أما القسم الآخر وهم أصحاب الأراضى من العرب الذين يأنفون العمل بالزراعة مع أن أراضيهم كانت جيدة وفى غاية الخصب ، ونظرا لعدم تطوير أساليب الزراعة البدائية فى ليبيا وغيبة سلطة الحكومة وعدم اهتمامها بأمور الفلاحين مال العديد من الأهالى إلى التجارة أكثر من ميلهم إلى الزراعة .

ب- التجارة الداخلية

كان يوجد بمدينة طرابلس عدة أسواق نذكر منها :

- سوق الربع وكان يعد أشهر الأسواق بالمدينة ، وهو على شكل أربعة صفوف ، وعلى كل جانب من هذه الصفوف أقيمت دكاكين وبسطات متراصة تحوى مختلف السلع والبضائع مثل اللآلئ والذهب والجواهر والتوابل والعطور النادرة وغيرها من المنتجات الشرقية .

- سوق النخاسة وكان يباع فيه العبيد السود والإماء الرقيقات .

- سوق البن وهو مكان مكتظ بالمقاهى ولا يقدم فيه غير شراء القهوة ، وكان يقصده الأتراك غالبا ليرتشفوا فيه بعض فناجين القهوة .

– سوق الترك وكان يقوم التجار الأتراك والعرب فيه ببيع بضائعهم في متاجرهم الصغيرة به ، وهى سوق صغيرة بها دكاكين ذات واجهات زجاجية يستطيع المرء أن يشترى فيها معظم ما يريد . ومع أن طبيعة هذا السوق شرقية فإن أغلب الحاجيات المعروضة للبيع كانت أوربية الصنع .

– سوق الترزية وفيه يركض النساجون لبيع أقمشتهم حيث يجرى المزاد العلنى ، وفيه يجلس اليهود والمالطيون لخياطة ، وبيع الأنسجة المختلفة .

وإلى جانب ذلك فقد كانت هناك أسواق للبقاله والملابس النسائية والحريرية والأوانى النحاسية والحدادة والنجارة والخبز والخضار والنعال والبنادق والمصوغات الذهبية والفضية هذا بالإضافة إلى السوق الأسبوعية المسماة باسم سوق الثلاثاء والذى كان يجتمع فيه العديد من الأهالى من أجل البيع والمبادلة وتعقد فيه الصفقات .

جـ– التجارة الخارجية

وعلى الرغم من أن التجارة الخارجية فى هذه الفترة كانت محدودة ، فقد ظلت مدينة طرابلس على صلتها البحرية ببعض المدن الأوربية خاصة إيطاليا كما ظلت أيضا محطة رئيسية لقوافل الحجيج الكبيرة الوافدة من الغرب إلى الشرق ، والعائدة من الغرب إلى الشرق . وقد كان وصول هذه القوافل الكبرى إلى طرابلس من المشاهد الرائعة السنوية ، كما كانت إقامتها عدة أيام بها فرصة لنشاط علمى وتجارى كبير حيث كانت تشترى الحرير الدمشقى الإيطالى والمصنوعات الزجاجية البندقية وغيرها من المستوردات المتوفرة فى أسواق طرابلس ، وتبيع ما تحمله من خيوط القطن والبن والعقاقير والتوابل وغيرها من الأشياء المجلوبة من الشرق والغرب وكان الميزان التجارى مع أوربا فى عهد الأسرة القره مانلية يميل غالبا لصالح طرابلس إذ أن قيمة صادراتها كانت تزيد بواقع الثلث عن الواردات .

وإلى جانب ذلك فقد كان هناك نشاط تجارى مع بعض المناطق الأفريقية أمثال تومبكتو وبورنو ، فقد كان يأتى منهما بعض المصنوعات اليدوية منها البسط والأحزمة الحمراء ، كما كان يجرى تصدير الصوف الممتاز وجلود الماعز والضأن المدبوغة ، والفواكة المجففة وبعض التوابل هذا إلى جانب القمح والشعير والأبقار والأغنام ٠

د- الصناعة

مارس السكان الصناعة التى كانت متوارثة من العهود السابقة وقد برزت فى ولاية طرابلس الغرب صناعة المنسوجات والدباغة وكانت لها أسواقها الرائجه داخليا وخارجيا ٠

٣- مظاهر الحياة العلمية والثقافية فى ليبيا خلال الحكم العثمانى

من الصعب التحدث عن حياة علمية وثقافية مزدهرة فى المرحلة المعروفة باسم العهد العثمانى الأول وهى المرحلة التى تمتد من استرداد طرابلس من الإسبان ١٥٥١ حتى قيام الأسرة القره مانلية ، فتؤكد المصادر عدم الاهتمام بأى نوع من أنواع النشاط الثقافى والعلمى خلال هذه الفترة ، خاصة وأن الحكام أنفسهم كانوا من طبقة لا صلة لها بالعلم وإنما كانوا فئه من المغامرين والبحارة الذين تمكنوا من الوصول إلى مراكز السلطة ، وقد أدى إهمال شأن العلم والعلماء إلى إنحدار المستوى الفكرى بين الأهالى الذين سيطرت عليهم الخرافات ، ومالوا إلى التصوف، والاعتقاد فى كل من ادعى الولاية بحق أو بغير حق ، ومع ذلك فقد كان للكتاتيب والزوايا دورها فى نشر التعليم الدينى ، وبالنسبة لعصر الأسرة القره مانلية فقد بنى أحمد القره مانلى مدرسة بجوار مسجده كانت ذات أثر ملموس فى إنعاش الحياة العلمية فى البلاد ٠

وبالنسبة لمظاهر النهضة العلمية خلال العصر العثمانى الثانى فتحصر فى جهود أحمد باشا راسم فى تطوير حركة التعليم والوقوف فى وجه المدارس الأجنبية من إيطالية وفرنسية والإرساليات التى كانت تسعى إلى اجتذاب العناصر المحلية وصبغها بثقافتها .

وقد اشتهر من فقهاء الإسلام فى طرابلس خلال هذه الفترة الفقيه "أبى على الحسن بن موسى بن معمر اليوارى الطرابلسى" وأحمد بن عبد الحميد اليربوعى كما تنحصر فى جهود نامق باشا الذى تأسست مدرسة الفنون والصنائع فى عهده ، وصدرت فى عهده جريدة الترقى لصاحبها "الشيخ محمد البوصيرى" ومجلة الفنون لصاحبها "داود أفندى" وقد حملت هذه الصحف لمحات من الروح الثقافية التى كانت سائدة بين المثقفين فى ذلك الوقت ، وعبرت إلى حد كبير عن المشاكل والقضايا التى تشغلهم وأسهمت بشكل واضح فى تطوير الحركة الثقافية فى البلاد .

وفى جهود الوالى حافظ باشا الذى شهد تطور التعليم فى عهده دفعة كبيرة إلى الأمام فأسس دارا للمعلمين ، ومدرستين كبيرتين ، ومدرسة للبنات، وإلى جانب ذلك فقد أسس العديد من المدارس الابتدائية فى بعض المناطق الليبية .

ولم تقتصر مظاهر الحياة الثقافية والعلمية على الولاه العثمانيين بل قامت إيطاليا بإنشاء العديد من المدارس وتمويلها فأنشأت مدرسة فنية تجارية عالية ، ومدرستين ابتدائيتين واحدة للبنين ، وأخرى للبنات ، وروضة أطفال للبنين وأخرى للبنات ، وكانت للجالية اليهودية أيضا مدارسها .

وهكذا يتضح أن كل محاولات الدولة العثمانية لتنظيم شئون ليبيا لم تؤت كلها بالمرجو منها ويرجع ذلك لعدة أسباب نذكر منها :

١-أن العثمانيين سيطروا على المناطق الساحلية فى ليبيا ولم يهتموا بالدواخل ، وعلى هذا أهملت المناطق الداخلية ولم تلق من الحكومة العثمانية إهتماما واضحا .

٢- أن أغلب مدة الولاة العثمانيين فى ليبيا كانت قصيرة لذلك انشغل معظمهم بتحقيق مصالحهم الذاتية دون الاهتمام بمصالح الأهالى .

٣-كثرة الحروب الداخلية خاصة فى عهد الأسرة القره مانلية وانتشار الأوبئة خاصة مرض الطاعون ، وعدم نجاح الحكومة فى السيطرة عليه ، وخاصة وأن اهتمامها بالنواحى الصحية كان ضئيلا .

٤-الإجحاف فى فرض الضرائب على الأهالى ، وسوء طريقة تحصيلها منهم .

هذا إلى جانب أن العثمانيين لم يتمكنوا من خلق روح الولاء لهم فى ليبيا خاصة وأن أهل ليبيا تمسكوا بالولاء للروح العربية بدلا من الولاء للعثمانيين خاصة وأن بلادهم تعرضت للكثير من حالات النهب على يد الولاة العثمانيين والمقربين منهم ومع كل ذلك فقد استفاد أهل هذه الولايات فى تقوية الحياة الدينية الإسلامية خاصة وأن الحكام العثمانيين حافظوا على المشاعر الإسلامية للمواطنيين العرب المسلمين فشاركوهم فى الاحتفالات الدينية ، ومراعاة الشعائر الإسلامية هذا بالإضافة إلى المحافظة على عروبة وإسلام هذه المناطق من الأطماع الصليبية .